

الفصل الخامس

الغرائز^(١)

يقع تصرف الإنسان أو سلوكه حسب حاجة الموقف الموجود أمامه ، حتى يلائم بين نفسه وبين طبيعة الأشياء ، أى البيئة المحيطة به ، مثال ذلك إذا أحسست بتيار من الهواء ، ووجدت أنك ستصاب بالبرد فإنك تقفل الباب .
فالأعمال الإنسانية استجابة لمطالب الحياة .

وتصرف الإنسان بإزاء هذه المواقف يتطلب أمرين : الأول الشكل الذى تدرك به الموقف وطبيعة المؤثر الخارجى ، والثانى القوى الداخلية ، أو « الميول » التى توجهك مختلف الجهات ، حتى تستجيب على وجه ملائم لطبيعة الموقف الخارجى ، فالإحساس بتيار الهواء هو المؤثر الخارجى ، والقوة التى دفعتك إلى إغلاق الباب هى الدفاع عن النفس والهرب من الأخطار . ولما كان الإنسان يولد ضعيفاً خالياً من المعرفة ، لم يعلم كيف يسلك فى الحياة ولم يعلمه أحد ، فلا بد أن يخرج إلى الوجود مجهزاً بكثير من القوى التى تدفعه إلى السلوك بما يحفظ حياته ؛ هذه القوى الكامنة ، والميول الموروثة ، والاستعدادات الفطرية هى التى تسمى « بالغرائز » .

كلما تقدمت السن بالطفل متدرجاً نحو الشباب فالرجولة ، أخذ « يتعلم » كيف يتصرف فى هذه الحياة ، كيف يأكل ويشرب ويمشى ويلبس ويضطجع

وينام ويكتب ويقرأ وأشبه هذه الأشياء التي يكتسبها الإنسان في مجرى حياته ، ثم يأخذ في ترديدها دون تفكير ، حتى ليصبح الإنسان في أغلب أعماله كالآلة . ولكن إذا كانت أغلب أعمال الإنسان التي يؤديها مكتسبة بواسطة التعلم كما رأينا ، فإن القوى الفطرية التي تولد مع الإنسان تظل كامنة مختبئة تؤدي وظيفتها ولكننا لا نراها .

وهناك لحظات تظهر فيها الغريزة بشكل واضح ، يجعلنا نتميزها بجلاء . لو ذهب أحد الرحالين إلى أواسط أفريقيا للاستكشاف ، وخرج يوماً خالياً من السلاح ، فتقابل وجهاً لوجه مع وحش ضار ، فإنه يجري ، أو يرمى بنفسه في النهر أو يتسلق شجرة أمامه ، إنه سيندفع إلى عمل كل هذا من تلقاء نفسه ، فهي غريزة الهرب التي تدفعه إلى ذلك . ولو أنك ركبت قطار السكة الحديدية وأنت ذاهب إلى مسافة طويلة ، ومعك كتب ومجلات لتسليتك في الطريق ، فإنك مع كل هذا تنزع إلى الكلام مع غيرك من الركاب ومسامرتهم ، فهي غريزة الاجتماع التي تدفعك إلى ذلك ؛ ولو أنك رأيت زحاما في الطريق حول شيء من الأشياء لاندفعت وتوجهت للذهاب إلى المجتمعين ، لاكتناه حقيقة هذا الزحام حول الشيء الذي تجهله ، إنها غريزة الاستطلاع التي تدفعك إلى معرفة ما تجهل .

هذا عرض أولي يبين لنا أن الغرائز هي القوى الفطرية الدافعة في حياة الإنسان ، وهي أساس السلوك عنده . ولكن هناك نوعاً من السلوك أطلقنا عليه اسم الفعل المنعكس ، فما هو الفرق بينهما ؟

الغريزة والفعل المنعكس :

الغريزة والفعل المنعكس كلاهما نوع من السلوك له مميزات يختص بها ، وقد قابل العلماء من قديم بينهما ، ولكن الأبحاث الحديثة في علم النفس أثبتت أن الفرق بينهما ليس كبيراً . هذه المقابلات نجعلها ونرد عليها فيما يلي : —

(١) الفعل المنعكس بسيط محدود ببعض عضلات الجسم ، بينما الغريزة معقدة وتشمل الجسم كله . فاذا رأيت شيئاً ضاراً سيقع على العين ، فإنك تطبق الجفن ، هذا الفعل المنعكس لم يتعد العضلات المتصلة بالعين ، بينما إذا رأى الإنسان حشرة سامة أو شخصاً يريد أن يعتدى عليه فإنه يبتعد بكليته ويهرب ، فهذا نجد أن الجسم كله قد اشترك في حركة الدفاع ، بينما تقتصر الحركة في الفعل المنعكس على عضلات العين فقط . ولكن المؤثر في الفعل المنعكس إذا كان شديداً فإنه يؤدي إلى حركات قد تشمل الجسم كله . فإذا وخرت شخصاً في يده وخرّاً خفيفاً تقلصت يده فقط ، أما إذا وخرته وخرّاً حاداً ، فقد يؤدي ذلك إلى اتساع حدقة العين ، وصعود الدم إلى الوجه ، وإفراز « الأدرينالين » ، وإلى حركات دفاعية تعم الجسم كله . كذلك القط المزروع مخه يموء ويخدش بمخالبه ويأتي بحركات غير متزنة ، نظراً لانعدام الجزء المسيطر على الحركات وهو المخ .

(٢) الفعل المنعكس يصدر عن الكائن رداً مباشراً على مؤثر خارجي ، بمعنى أنه يتوقف على وجود المؤثر الخارجي وطبيعته ونوعه . مثال ذلك إذا وضعت يدك في ماء ساخن أكثر مما تحتمله يدك فإنك تستردها ، أو الأصح أن نقول إن يدك تراجع ؛ أما الغريزة فإن أصولها تمتد إلى داخل الكائن ، مثال ذلك أن العصفور يرى طول العام أوراق الأشجار وفروعها ، ولكن رؤيتها لا تستثير

فيه الميل إلى جمعها حتى يبنى عشه ، وإنه لا يبدأ في ذلك إلا في زمن مخصوص ، فهذا السلوك أى بناء العش صدر عن ميل داخلي ؛ على أننا قد نجد أن الفعل المنعكس يكون صادراً عن الكائن أحياناً لا رداً على مؤثر ، وأن الغريزة قد تتوقف على المؤثر الخارجى أحياناً أخرى ، ويتضح أثر الناحية الأولى في الأفعال المنعكسة المتعلقة بشرط ، مثل إفراز اللعاب ومواء القط حينما يرى الأطباق تصف فوق مائدة الطعام عند الظهر . ويتضح أثر الناحية الثانية ، وهى توقف الغريزة على مؤثر خارجى فى كثير من المناسبات ، فظهور الغضب يستدعى وجود حائل يعترض رغبة الإنسان .

(٣) ومن أهم المعارضات التى تذكر فى باب الموازنة بين الغريزة والفعل المنعكس ، هى أن للغريزة غرضاً تسعى إليه ، بينما الفعل المنعكس لا يحقق أى غرض ، وإنما هو فعل آلى بحت . أما أغراض الغريزة فيما يختص بالفرد ، فهى التغذية ، والهجوم ، والدفاع ، والبحث عن المسكن . وأغراضها فيما يختص بالنوع هى غريزة التناسل ، وتربية الصغار ، وأغراضها فيما يختص بالمجتمع هى الغرائز الاجتماعية ، فالغريزة وهى تسعى نحو هذا الغرض لا تخطئ أبداً ، حتى لقد وضعوا هذه الصفة تحت عنوان « عجائب الغريزة » . ومن الأمثلة المشهورة التى تضرب عادة فى هذا الباب ما يذكر عن الحشرات التى تشل حركة فريستها دون أن تقتلها ، وذلك لكي يتيسر اصغار الحشرة أن تتغذى بلحم طازج لا باحم ميت ، وهذا هو السر فى أن الحشرة لا تطعن الفريسة إلا فى المراكز العصبية ، كأنها جراح ماهر يعرف مواضع تشريح الجسم .

ومع ذلك فكثيراً ما يكون للفعل المنعكس غاية مفيدة ، مثل معرفة بعض الحيوانات الشديدة للنباتات السامة بواسطة الذوق . وفى التجربة أن القطة المنزوع

نحها ، إذا سمعت صوتا مفاجئا ، فإنها تتجه بعينها نحو مصدر الصوت ، وهذا دون شك فعل منعكس .

أما فيما يختص بكمال الغريزة واتباعها غاية وسبيلا لا تخطئها أبدا فهي خرافة تكذبها المشاهدة ، فقد أثبتت ملاحظة بعض العلماء فساد القول بأن الحشرة التي تشل فريستها لا تخطئ ، إذ أنها كثيراً ما تنحرف في تسديد الطعنة ، وكثيراً ما تصيب الفريسة في مقتل ، ومع ذلك فإنها تقودها ميتة ، ويتغذى الصغار منها وهي على هذا النحو .

والخلاصة من كل هذا هو أن الفرق بين الغريزة والفعل المنعكس ليس كبيراً ، بحيث يترك فجوة عميقة بينهما ، بل هو فرق غير محسوس تميزه درجة تعقد السلوك في الغريزة ، وبساطته في الفعل المنعكس .

مميزات الغريزة :

تمتاز الغريزة بالميزات الآتية :

(١) الغريزة نوعية (Spécificité) :

ومعنى ذلك أنها واحدة بالنسبة لجميع أفراد النوع من جنس واحد ، فلكل نوع غرائزه التي تميزه عن غيره ، مثال ذلك البيوت التي تنسجها العناكب ، فكل صنف منها ينسج بيتا بشكل مخصوص ، مثل تلك التي تنسج البيوت في زوايا الحيطان .

هذه الوحدة في النوع ليست مطلقة ، إذ أن هناك فوارق شخصية ، لأن الأفراد لا يتشابهون إلى حد التطابق . ولكن هناك صفات أساسية ثابتة هي التي تسمح لعالم الحيوان أن يميز الأنواع المختلفة منه .

كذلك ليست الغريزة ثابتة على الزمن ، فالغرائز تصل إلينا عن طريق الوراثة ، وهى اتصال الأجيال بعضها ببعض ، ويحدث تغيير مع الزمان خلال هذا التطور ، ولكنه بطيء غير محسوس .

وقد تغير بعض أنواع الحيوان من مسلكها فيما يتصل ببعض المظاهر الخارجية للغريزة ، ومن الأمثلة على ذلك ما شوهد من أن بعض العصافير استبدلت بالمواد التى تبنى بها عشها مخلفات من الصناعات الإنسانية ، مثل عيدان الثقاب القديمة ، ومخلفات الساعات بالقرب من مصنع لها .

(٢) الغريزة فطرية (Innéité) .

وهذه من أهم الصفات التى تميزها ، وإذا نفينا هذه الصفة عنها فإننا ننفي بذلك وجود الغريزة نفسها . وبعض الفلاسفة قالوا إن الغريزة ليست فطرية فإن « بسكال » يقول : « إن الطبيعة عادة أولى » ولكن الواقع ينكر ذلك ، إذ يكفى أن ننظر إلى الإنسان أو ضروب الحيوان لتحكم بما يخالف ذلك القول . فالطفل الحديث الولادة ليس فى حاجة إلى « التفكير » ليصيح أو يرضع ، فهو يصيح كلما أحس بألم ، وهو يمص كل جسم غريب يلامس شفثيه .

هذا السلوك وأشباهه يتحقق من بداية الأمر ، فالغريزة تخلق كاملة ، لا يحتاج الكائن إلى التعلم والكسب والتدريب لتأدية العمل . وإذا رجعنا إلى الحيوانات الثديية المنحطة ، العاجزة عن تكوين هذه الأعمال بالعادة أو الكسب ، نجد أنها تؤديها كذلك ؛ فليس القط فى حاجة إلى من يعلمه اصطيد الفيران ، وليس الطير فى حاجة إلى من يعلمه بناء العش .

ولا يجب أن نفهم من فطرية الغريزة أنها تظهر مع ظهور الكائن إلى الوجود ، فكل غريزة تظهر فى الوقت الملائم لها ، مثل الطيور المهاجرة التى لا يظهر عندها

هذا الميل إلا في وقت معين من السنة . ومن التجارب اللطيفة ذات الدلالة في هذه الناحية تجربة القط الذي ربي منذ صغره مع الفأر ، فإنه لا يظهر نحوه أى اهتمام إلا بعد مضي أربعة أسابيع ، وحينئذ يظهر عند القط هذا السلوك المعروف بخفاة ، وهو المطاردة واللعب مع الفريسة ، والزججة ، ثم قتل الفأر .

وليس يلزم في فطرية الغريزة أن تكون ثابتة غير قابلة للتغيير ، إذ أن العادة كثيراً ماتطغى على الغريزة وتغيّر بها .

وإذا شئنا أن نتبين الغريزة الخالصة ، فلا بد لنا من الرجوع إلى الحيوان المنحط . والأصل في الغريزة أن تتحقق بالفطرة دون حاجة إلى تعلم ، وتجربة « سبالدينج Spalding » واضحة في هذا الصدد ، كان ذلك في عام ١٨٧٣ حين فكر « سبالدينج » هل يطير الطير عن فطرة أو عن تعود . ذلك أن آباء الطير تدفع صغارها إلى الطيران ، وتدرّبها ، ويكتسب الصغار منها حركة الطيران بالحكاكة ، لذلك أحضر « سبالدينج » بعض صغار الطيور الحديثة الفقس ثم حبس كل واحد منها في قفص على حدة ، ولم تكن الأقفاص من السعة بحيث تسمح لها بتحريك أجنحتها ، ولما نبت ريشها وحان موعد طيرانها أطلقها ، فإذا بها تطير وتحرك أجنحتها لأول وهلة كغيرها من الطير تماماً . فهذه تجربة عظيمة الدلالة فيما يختص بفطرية الغريزة وثباتها .

ولكن من النادر أن نعثر على الغريزة ثابتة بهذا الإطلاق ، فأنطويور المفردة لا تغرد إلا إذا سمعت أترابها تغنى ، وإذا حبست عن غيرها من نوعها لم تغرد . وتلاعب الكرة دوراً كبيراً في أداء الحركات الغريزية ، فأفرخ حين ينقف من البيض ، ينقر في الأرض كل ما يصادفه من الحب والديدان والحشرات ، كما ينقر الحصى ، وأعين الأفرخ الأخرى ، وكلما تقدمت السن باقفرخ لا يلتقط كل

شئ ، ولذلك فإنه يصدف عن بعض الديدان الضارة .

مما سبق يتضح لنا أن الغريزة تظهر في صورتين :

١ — الغريزة الخالصة المصحوبة بحركات تظهر كاملة دون حاجة إلى كسب وهذه الصورة نجدها على الأخص عند الحيوانات الدنيئة .

٢ — الدوافع الغريزية التي هي أساس السلوك ، يبنى عليها الأفراد مسالك مختلفة ولكن الأساس واحد .

(٣) الغريزة عمياء :

تتميز الأعمال الإرادية عند الإنسان بأن هناك غرضاً يستدعى الشعور به اتباع طريق يوصل إليه ، فالغرض هو الذى يملى على الإنسان اختياره الطريق . يشعر المريض بالمرض ، فيمتنع عن تناول الطعام حتى لا يزداد به المرض ، وإذا أراد شخص أن يقضى الليل فى التسلية فإن هذا الغرض هو الذى يملى عليه الذهاب إلى دار الخيالة .

كذلك اصطيد الفريسة وشل حركتها ، ووضعها فى الممر بجانب البيض هو طريق لهذا الغرض ، وهو أن تكون مؤونة للصغار حين تنقف البيض وتخرج منه .

ولكن الحيوان لا يدرك أو لا يشعر بالغرض الذى يحققه العمل الغريزى . والدليل على ذلك أن تعديل الظروف الخارجية لا يدفعه إلى تعديل العمل الغريزى ، بحيث يلائم هذه الظروف ؛ هذا ما نعبه بقولنا إن الغريزة عمياء . مثال ذلك أن النحلة التى تملأ الخلية بالعسل ، تظل تملؤها على الرغم من وجود ثقب صغير فى قرار الخلية يسيل منه العسل فلا تمتلئ أبداً .

يذكر « فابر » مشاهدته عن حشرة تشل حركة فريستها ثم تجرها إلى

جحرها ، وتركها بالباب ، ثم تدخل الجحر ، وتدور فيه كأنها تتحقق من عدم وجود غريب في داخله ، ثم تخرج ثانياً لتدخل الفريسة . فتربص « فابر » لها وكلما دخلت الجحر أبعد الفريسة عنها ، فتذهب الحشرة ، وتجر الفريسة وتتركها بالباب ، ثم تدخل الجحر وحيدة وتتأمل فيه ، ثم تخرج ، فإذا بالفريسة بعيدة عن الجحر ، فتبدأ هذه العملية من جديد ، وظل « فابر » يردّد هذا العمل عدداً كبيراً من المرات ، والحشرة لا تزال تكرر هذا السلوك . ولكن « فابر » يذكر في مكان آخر « إن حشرة أخرى لم تكن في بلاهة الأولى ، فقد تناولت فريستها بعد التجربة الثالثة ، ودخلت بها إلى الجحر » .

ومن هذا يتضح لنا أن التجربة الشخصية تعدل من العمل الغريزي . وعلى ذلك فإن الغريزة ليست عمياء على الإطلاق .

التقسيم الثلاثي للغريزة :

الغريزة من الظواهر النفسية وقد ذكرنا في تحليل الظاهرة أن لها ثلاثة أوجه : إدراك ووجدان ونزوع . وهذا الكلام ينطبق على الغريزة .

فإذا داس أحد على قدمك ، يحدث إدراك ووجدان ونزوع . فتدرك أن هناك من داس على قدمك ، وتدرك اتساخ الحذاء ، وهذه هي الناحية الإدراكية ثم تشعر بالألم وتنفعل بالغضب ، وهذه هي الناحية الوجدانية ؛ ثم تنزع إلى ضرب من داس على قدمك ، أو إهانته بالكلام بصوت عال ، وقد لا تفعل شيئاً ، إذ يظل النزوع كامناً دون أن يتحقق .

وفي كل غريزة نجد هذا المظهر الثلاثي ، ولكن أوضح الثلاثة هو النزوع . وهناك من يقول بأنه الانفعال ، لأنه في بعض الأحيان يكون هو الأوضح ، ولكن

الغالب هو الجانب النزوى ، ولذا يميل الكثيرون إلى تسمية الغريزة بالمظهر النزوى منها ، فيقولون غريزة المقاتلة دون الغضب ، والهرب دون الخوف .

والجانب الوجدانى له أهمية كبيرة فى سلوك الكائن ، فالقطة تنزل إلى الحقل وتقف بين الأعشاب ، فترى بعضها يتحرك ، فتقف القطة وتقترب بحذر ، وتبحث ، فإذا رأت طائراً هجمت ، وإذا رأت كلباً فرّت ، فسلوك القطة هنا يبدأ بالاهتمام المصحوب بالانتباه والاستطلاع ، ولكن إقدامها أو تراجعها هو نتيجة السرور أو الخوف .

ولا يلزم أن يكون الجانب الإدراكى من الغريزة شيئاً محسوساً ، فقد يكون تذكراً لشيء سالف حصل لك فيما مضى ، ويسبب لك الدافع الغريزى والانفعال . فإذا تذكرت المشادة التى حصلت بينك وبين صديقك وتذكرت الألفاظ الجارحة التى وجهها إليك ، فإنك تنفعل انفعال الغضب ، وتنزع إلى المقاتلة ، فتظهر عليك آثار هذه الغريزة واضحة جلية ، حتى أن جليسك يلحظ منك هذا ويعجب . وهذا كثير الوقوع ، لأنك تجد شخصاً يجلس هادئاً فيتذكر منظرًا مخيفاً فيخرج عن هدوئه ، ويتكلم فى صوت عال « أعوذ بالله ... » وهذا هو المظهر النزوى للخوف والدهشة .

وقد لا يكون الجانب الإدراكى شيئاً محسوساً ، ولا شيئاً تتذكره ، ولكن قد يكون صورة خيالية تبتدعها فى ذهنك ؛ فإذا تخيلت فى الظلام عفريناً ، فإنك تضطرب وتخاف وتطلق ساقيك للريح .

فلا بد للغريزة أن يكون هناك مؤثر خارجى يستثيرها ، قد يكون شيئاً محسوساً خارجياً ، وقد يكون ما تتذكره أو تتخيله . ولا بد من وجود الإدراك حتى تتم الغريزة ، فإذا رأى الطفل الصغير ثعباناً ولم يدرك أنه سيلحق به أذى ، فإنه لن

يخاف منه ولن يهرب . فإلهم هو حصول الإدراك سواء أكان حقيقياً أم وهمياً .
فإذا هجم عليك لص في يده سكين هربت ، وإذا توهمت في الظلام وجود لص
هربت أيضاً .

فالغريزة تتوقف إلى حد كبير على الجانب الإدراكي ، وإذا اعترض بعض
العرائز وقت ظهورها ما يمنع تنفيذها فإنها تموت إلى غير عودة . فالفرخ الصغير
عنده ميلان ، ميل إلى الاستئناس وميل للخوف . فإذا فصلته منذ الصغر وحيدا
فإنه يميل إلى الاستيحاش وينفر من الناس ، بينما إذا عودته منذ الصغر أن
يتصل بغيره ، فإنه يميل إلى الاستئناس حين يكبر .

إعلاء الغريزة :

للجانب النزوعي من الغريزة شطران ، الأول القوة الدافعة ، والثاني طريقة
تنفيذ ما تدعو إليه هذه القوة . وقد وجدنا أن الغريزة عند الحيوان ، على الأخص
ضروب الحيوان الدنيئة ، تتحقق في الغالب كاملة عند أفراد النوع بصورة واحدة
كأنهم يبنون خليته السداسية بشكل واحد لا يتغير . فهو يحقق الميل الغريزي لبناء
الخلية ، وطريقة بنائها ، بشكل واحد . والفرق بين الإنسان والحيوان في هذه
الناحية ، هو أن الإنسان له حرية اختيار الطريقة التي ينفذ بها الميل الغريزي ،
فلدينا جميعاً ميل إلى الهرب وتجنب الأخطار ، ولكن شخصاً يهرب جرياً ،
وثانياً مختفياً ، وثالثاً متسلقاً شجرة ، ورابعاً رامياً بنفسه في الماء ؛ بينما النعامة حين
يطاردها الصيادون تضع رأسها في الرمل ، زاعمة أنها ما دامت لا ترى الصياد
فإن الصياد لا يراها . ويحقق الإنسان الأول^(١) دوافعه الغريزية بصورة متسقة

تقريباً ، وقد هبطت إلينا هذه الصورة عن طريق الوراثة ، فالأصل في غريزة المقاتلة أن تظهر في صورة الصراع ، والضرب باليدين أو القدمين ، والعض والصراخ ، ثم أصبح الناس في المدنية الحديثة ، وإذا بهذه الأعمال الغريزية لا تتفق وإياها ، فماذا هم فاعلون ؟ هذه مشكلة صعبة الحل وهي : وجود الدوافع الغريزية التي تريد أن تجدها مخرجاً من جهة ، والإنسان في الوقت الحاضر لا يريد تنفيذها لأنها تضره ، ولا تتفق مع المدنية الحديثة من جهة أخرى . فصورة المقاتلة التي ذكرناها كريهة حقاً ، ولكن القوة الدافعة إلى الكفاح فطرة ثابتة في النفس ، لا يمكن محوها أو استئصالها . هذه القوة وغيرها من الميول الفطرية مثلها مثل ماء النهر المتدفق الدائم الجريان ، إذا وضعت سداً يحول دون الماء فإنه لا يتفقه ، بل يحدث إما أن يطغى الماء الدافق على السد فيحطمه ، وإما أن يكون السد منيعاً فيتسرب الماء في مسارب خفية ينصرف فيها ، وكلا الأمرين مضر . فإذا وقفت أمام الطفل الصغير تمنعه من الحركة والكفاح ، فإنك بهذا تضع سداً من التقاليد الاجتماعية يحول دون انطلاق القوة الكامنة عند الطفل في مجراها الطبيعي ، وحينئذ إما أن يشور الطفل فيخرج شريراً مشاكساً ، وإما أن يهدأ في الظاهر ولكن قوة الكفاح تنصرف إلى مسارب معوجة وطرق غير مستقيمة ، فيضرب إخوته الأصغر سناً دون ذنب أو يتلف الأشياء التي تقع بين يديه .

يجب إذن أن نوفق بين كل هذا ، أما القوة الدافعة ، وهي الشرط الأول من الغريزة ، فلا بد أن نتركها كما هي لأنها فطرية ولا يمكن محوها أو تغييرها ، أما تحقيق الغريزة فلنا معه شأن آخر ، ذلك أننا نستطيع أن نعدل مجرى الغريزة ونساعى بها ونوجهها وجهة أخرى ، ونتعالى بها عن مجراها الطبيعي إلى ما هو خير للإنسان ، وما فيه نفعه ، وما يتفق والمدنية الحديثة ، وهذا ما يسمى في علم النفس بالإعلاء .

على هذا نستطيع أن نوجه غريزة الكفاح وجهة رياضية كالمصارعة ولعب كرة القدم ، أو مكافئة مشاكل الحياة التي تعترضنا والانتصار عليها ، إلى غير ذلك مما سيأتى ذكره بالتفصيل فيما بعد .

الغرائز الإنسانية :

من العسير تمييز الغريزة عند الإنسان ، لأن فصل الميول المكتسبة عن الفطرية كثير الصعوبة بالنظر إلى ما طرأ على الإنسان من آثار الحضارة ، وما اكتسبه عن طريق المحاكاة والتقاليد والعادات والعقائد . فلا بد لنا في البحث عن الغريزة الخالصة من هذه الآثار المكتسبة ، أن نرجع إلى الطفل الصغير ، أو الإنسان الأول . والطفل أوضح في الدلالة لأنه لا يزال بعيداً عن تأثير الكسب والعادة (وإذا استطعنا أن نعرّله ، كما فعل « سبالدنج » مع صغار الحيوان ، كان ذلك أفضل) . ولكن هذه الطريقة لا تقيدنا إلا في العهد الأول من عهود الطفولة ، إذ يندرج الطفل بعد ذلك في المجتمع والبيئة . فإذا فعلنا ذلك فإننا نجد بعض الأعمال كالرضاعة ، والخوف من الظلام ، والخوف من الضوضاء والأصوات الشديدة ، كل ذلك فطري عند الطفل .

وغرائز الإنسان كثيرة ، وقد اختلف العلماء خلافاً كبيراً في تصنيفها ، ولكننا إذا قسمناها تبعاً لموضوعها فإننا نحصل على الثبت الآتى .

ذلك أن الحيوان يحتاج لحفظ حياته أن يتغذى ، وأن يدافع عن نفسه ، وأن يعرف ويميز الوسط المحيط به ، وأن ينسل . وإذا كان الحيوان اجتماعياً فلا بد أن يتصل بأفراد نوعه . هذه الغرائز المختلفة توجد كذلك عند الإنسان لأنه نوع من الحيوان .

غرائز البحث عن الطعام :

ليس شك في أن الطفل يؤدي كثيراً من الوظائف العضوية بالفطرة ، وذلك نظراً لحاجة الجسم الماسة إليها ، وبدونها تتعطل الحياة ؛ من هذه المطالب ما يؤديه الجسم دون تدخل الإرادة ، كالتنفس والهضم وإفراز الفضلات . والطعام من الضرورات الأولى التي لا يمكن أن يستغنى عنها الإنسان أو الحيوان ، ويكفى أن تتصور الإنسان في حالة مجاعة لترى كيف يفقد كل معاني الإنسانية التي اصطلاحنا عليها ، حتى لقد يصل به التوحش أن يأكل لحم أخيه الإنسان .

والرضاعة عند الطفل فطرية ، وهو في مبدأ الأمر يضع كل ماتقع عليه يده في فمه ، حتى لقد يمص أصبعه . وكثيراً ما يصطحب الإنسان هذه الغريزة الأولى معه طول حياته ، وهذا هو السبب في أن كثيراً من الأشخاص يقرضون أطراف أصابعهم ، أو يضعون أقلام الرصاص في أفواههم الخ . ويرى « فرويد » أن السرور من التدخين يرجع إليها .

ويتصل بالبحث عن الطعام غريزة الصيد . والحيوان على وجه العموم يحصل على غذائه عن طريق الصيد ، وكذلك كان الإنسان الأول ، ولكننا لانلجأ إلى ذلك في الوقت الحاضر ؛ ومع ذلك فالميل إلى الصيد والمطاردة كثيراً ما يظهر عند الإنسان المتحضر . فالطفل يلذ له أن يقتنص الحشرات في الحدائق ، وأن ينصب الفخاخ للعصافير ، وأن يصطاد السمك . ومن اللهو الذي يفتن كثيراً من أفراد الطبقات الرفيعة صيد الحيوانات البرية .

غرائز الدفاع :

نستطيع أن نقسم الدفاع إلى مجموعتين ، الأولى الدفاع عن الجسم فسيولوجيا ، ويتصل بهذا النبذ أو النفور والتقزز ، والثانية الدفاع لحفظ الحياة ، وذلك يكون بالهرب أو الكفاح .

١ — النفور والتقزز^(١) :

الأصل في التقزز أن يكون دفاعاً عن الجهاز الهضمي . فالطفل يضع في فمه كل شيء يصادفه ، ولكنه يبعد عنه كل ما لا يستسيغ طعمه أو يكره رائحته ، ثم ينتهي الأمر بالإنسان أن يتعود التقزز من ألوان معينة من الطعام . لذلك تجد كثيراً من الأشياء تؤكل في جهة ، ويُتقزز منها في جهة أخرى . مثال ذلك أن الصينيين يأكلون لحم الكلاب ويستطيبونه ، بينما نحن نتقزز منه . ويتصل بالتقزز بعض المظاهر الجسمية كالבصق .

أما النفور فهو الابتعاد عن الأشياء التي تضر سطح الجلد ، مثل وقوع بعض الحشرات الطفيلية كالذباب وغيره على الوجه . ويقال إن الأصل في النظافة يرجع إلى هذه الغريزة ، ولكن هذا الرأي مشكوك فيه ، لأن الإنسان إذا ترك شأنه فإنه لا يبدى أى ميل للنظافة .

فالتقزز والنفور ميلان الغرض منهما الدفاع العضوى ، ويتصل بهما الاحتقار ، وحينئذ تتشكل ملامح الوجه بهذه الصورة المعروفة ، وكثيراً ما يبصق الإنسان لإظهار الاحتقار .

٢ — الخوف والهرب :

الهرب قوة الغرض منها الدفاع عن الكائن بأكمله ، لا عن جزء من الكائن .

Répulsion, dégoût. (١)

فتقلص اليد عند خزها بدبوس لا يعد دفاعاً عن الجسم بأجمعه ، بل فعلاً منعكساً
ووسائل الدفاع عند الخوف ثلاث : الصياح ، والهرب ، وتوقف الحركة .
فالطفل الصغير يصيح ، وحينما يكبر يهرب أو يقف في مكانه ، وكلما تقدمت به
السن تعلم أن يحبس الصياح .

ومن بواعث الخوف عند الطفل الصغير الضوضاء ، والأصوات العالية
المفاجئة ، والاشفاق من الوقوع ، والظلام والوحدة ، ورؤية بعض الحيوانات
كالتمبان والعنكبوت . والانسان الأول والحيوان يخافان من الظواهر الطبيعية ،
مثل الرعد القاصف ، والبرق اللامع ، والعواصف الثائرة .

وأغلب مؤثرات الخوف عند الانسان اكتسبها بالتعود ، ونستطيع أن نرجعها
إلى كل ما يلحق الأذى بالإنسان . وقد يكون الخطر حقيقياً كما يكون وهمياً ،
والخطر الحقيقي قد يكون مادياً مثل وجود الشخص في منزل يحترق ، وقد يكون
معنوياً كخوف الموظف من الرفت ، والطالب من الرسوب في الامتحان . أما
الخوف من المؤثرات الوهمية فأساسه الخرافات التي تشيع في أذهان العامة ، مثل
الخوف من الأشباح والنفاريت .

هذا وقد تغيرت المؤثرات التي تدفع إلى الخوف في العصر الحاضر . فالإنسان
الآن ، يخاف من الأمراض المعدية ، ويخشى سقوط مركزه الاجتماعي ، ويهرب
من المجتمع إذا اضطر إلى مخالطة تقاليده .

٣ — الكفاح والغضب :

ليس الحرب الوسيلة الوحيدة للدفاع عن الكائن ، بل هناك وسيلة أخرى
هي الكفاح ، وهو قوة تدفع الإنسان إلى أن يقاتل ويقاوم إذا رأى هناك خطراً
عليه ، أو مسه أحد بسوء ، وذلك إما باغتصاب ما يملكه الشخص ، وإما بحرمانه

الوصول إلى رغبة ، وإما محاولة التغلب على شيء من الأشياء .
ومظهر غريزة المقاتلة حين تتحقق كاملة يكون في صورة الصراع ، والضرب
باليدين أو القدمين ، والعض ، والصراخ .

وهي أوضح عند الإنسان غير المتمدين والطفل والحيوان . فإذا اقتلع أحد
زراعة فلاح ضربه بالقأس دون أى تفكير . وإذا أخذت لعبة الطفل ، أو
حرمته تنفيذ رغبة يريدها ، همّ بضربك أو أجهش بالبكاء . وإذا اعتديت على
قطعة في بيتك ، بأى نوع من أنواع الاعتداء ، زحجرت غضباً ، وأخذت تموء مواء
الشر والمقاتلة ، وحاولت أن تهجم عليك .

وقد أسدلت التقاليد العصرية رداء كثيفاً يحجب هذه الصورة الوحشية من
المقاتلة ، فأصبح الإنسان يدفع العدوان بحجة اللسان ، وانصرف الأمر من الاعتداء
البدنى إلى الانتصار المعنوى ، فيستعمل المقاتل طرق الدس والإيقاع في الخفاء ،
والتشهير بين الناس بالشتائم والمهجاء ، وتربص فرصة ضعف الخصم لإلحاق الأذى
بأملأكه أو عرضه أو ماله أو مركزه ، إلى آخر هذه الألوان من الرياء والمداهنة .
وقد تقع المقاتلة في الاصطلاح كالمبارزة ، ولكن أغاب الدول منعها في الوقت
الحاضر . وكثيراً ما يمزق الإنسان هذا الغشاء الرقيق من العادات فيرجع إلى حالة
الوحشية الأولى منفذاً المقاتلة بالعدوان ، وذلك إذا كانت باعث الغضب قوياً .
كذلك انتقل تحقيق صور المقاتلة من يد الفرد إلى سلطان الجماعة ، التي تحكم
على المعتدى بقوة القانون . ومع ذلك فحكم القضاء حتى ولو كان قاسياً ، فإنه لا يشبع
رغبة الشخص في المقاتلة .

والمغالبة هي الصورة المعنوية لغريزة الكفاح ؛ فمغالبة صروف الحياة ، وحلّ
المشاكل العلمية ، ومعارضة شهوات النفس إلى غير ذلك ، هي ألوان من الكفاح ،

وكأنها ضروب من المقاتلة ، لأن الإنسان يقف أمام أعداء يحاول الانتصار عليهم .
فصروف الحياة ، ومشاكل العلم ، وشهوات النفس ، هي أعداء تحُول دون رغباته .
ومؤثرات هذه الغريزة هي محاولة الإضرار بالإنسان بأي شكل من
الأشكال . وتبتعث عند الحيوان إذا هوجم أو حرِم من طعام ، أو اعتدى على
صغاره . ويقا تل الإنسان كل من يتدخل في أموره وأعماله ، ويكافح كل عقبة
تقف في سبيله .

وقد يكون مثار الكفاح جهاداً ، فقد تكتب رسالة لايحببك إنشاؤها
فتمزق أوصال الورق في حدة وعنف . والنجار الذي يعسر عليه دق مسمار ، تجده
يضرب بالتقدم الأرض ، ويرمى الآلات التي يعمل بها بعيداً .

وقد يقا تل الإنسان دون سبب ظاهر ، كالطفل الذي يضرب أخاه الأصغر
أو الحيوانات المستأنسة الموجودة في المنزل ، أو كصاحب العمل الذي ينفجر غضباً
معتدياً على عماله ؛ والباعث هنا ، طبقاً لرأى علماء التحليل النفساني وعلى رأسهم
« فرويد » يرجع إلى عقدة نفسية مستورة في اللا شعور ، تحاول الظهور بين حين
 وآخر في هذه الصور التي ذكرناها . فالطفل الذي يضرب أخاه الأصغر ، يكون
والده قد ضربه بقسوة قبل ذلك ، ولم يستطع أن يقف أمام والده موقف النذ
 ويرد عدوانه ، فتتسرب هذه القوة نحو أخيه .

وإذا كان الكفاح فطرياً لانستطيع أن نمحوه من النفس ، أو نقف في سبيله
لأنه ينقلب عند ذلك شراً ، فكيف تتسامى بهذه الغريزة إلى خير الانسان
ونفقه وما يتفق والمدنية الحديثة ، دون أن نتركها تجري في مجراها الطبيعي ، في
صورة المقاتلة وسفك الدماء ؟ وكيف نسمو بها عند الأمم التي تسلك مسلك الأفراد
فتقتص لنفسها بالحرب ؟

تمكن هذه المقاتلة في صورة رياضية ، بدل أن يقاتل الانسان أخاه ، قشبع
الغريزة من جهة ، ونكتسب صحة ورياضة من جهة أخرى ، وهذا هو السر في
انتشار الألعاب الرياضية السامية الغرض . فاللاكمة والمصارعة ولعب كرة القدم
والسباحة . . . إلخ كلها تعتبر منافذ تنساب منها مياه الدافع الغريزي للمقاتلة .
ونستطيع أن نستغرق قوة الكفاح في مغالبة المشاكل العالمية ، فننتصر على الجهل
ونكتشف مجاهل العلم في جميع نواحيه . والدفاع عن المبادئ الفكرية والدينية
والسياسية والخلقية والوطنية يحتاج إلى كثير من الجهاد والكفاح والمغالبة .

والغرض من الكفاح والمقاتلة هو الدفاع عن النفس الذي يؤدي إلى حفظ
الحياة . ومع تعارض الكفاح والهرب ، فكلاهما دفاع عن النفس ، ومن اجتماعهما
يحدث اتزان تخرج منه الحياة المثلى للإنسان ، أى يهرب وقت الحرب ، ويكافح
وقت الكفاح . وتتجه شخصية الانسان تبعاً لتغلب إحدى الغريزتين ، فمن
يسود عنده الكفاح يسمى شجاعاً أو متهوراً ، ومن يتغلب عنده الهرب
يسمى جباناً .

الاستطلاع :

حب الاطلاع قوة تدفع الإنسان إلى أن يتعرف الجاهول . وهذه الغريزة في
الأصل ضرورية لمعرفة البيئة المحيطة بالإنسان ، إذ أن سلوكه يتشكل حسب هذا
الإدراك . ويصبح الاستطلاع الانتباه ، الذي يعتبر تمهيداً للإدراك ، فيجدق
الإنسان عينيه ويرهف أذنيه ، ويفتح حواسه جميعاً لاستقبال المعرفة الجديدة .
فالطفل الحديث الولادة يتبع برأسه وعينيه الأشياء التي تتحرك أمامه . ولا يكتفى
الإنسان بمجرد المشاهدة ، بل يلجأ إلى التنقيب للوصول إلى اكتناه الحقائق .
فيكسر الطفل لعبته ويفككها ويمزقها ، وقد تراه يعذب حيواناً صغيراً ، فيشده

ويجذبه ، والحقيقة هنا أنه يلبي دافع الاستطلاع . والطفل نزاع إلى تفسير الظواهر التي تقع تحت خبرته ، وهو شديد الظمأ إلى المعرفة ، ولذا كان كثير السؤال عن أسباب الأشياء ، فيصوغ أسئلته في ثوب التعليل الذي يبدأ بكلمة « لماذا » . وكثير من أسئلته محرجة ، لأن العلم لم يصل إلى تفسيرها ، كأن يقول « لماذا تذوب قطعة السكر في الماء بينما الملعقة لا تذوب ؟ » وفي كثير من الأحيان يسأل الطفل لمجرد السؤال ، لا يطلب جواباً بل هي طبيعة الاستطلاع التي تدفعه إلى ذلك ، والدليل على هذا أنه يسألك فإذا شرعت في الإجابة انصرف إلى لعبته دون أن يهتم بك .

هذه الغريزة هي أساس العلم والمعرفة ، فالعلوم المختلفة والمكتشفات المتعددة والمخترعات المتباينة هي نتيجة هذه الفطرة . لذلك يجب أن تفسح المجال لظهورها ، بأن نسهل التعليم ، وننظم المحاضرات والمناظرات ، ونكثر من دور الكتب ، ونعنى بإصدار الكتب والصحف ، وإقامة المتاحف والمعارض والمؤتمرات ، وتشجيع المعامل التي أصبحت لا غنى للعلم عنها .

الاجتماع :

الإنسان حيوان اجتماعي ، لا يستطيع إلا أن يعيش مع غيره من بني الإنسان . والاجتماع غريزة فطرية . تأمل في صميم نفسك تجد أنك تحب الحياة في رقة غيرك وتكره العزلة . وإنك لتسعى إلى الوجود بين الناس ولو أنك لن تستفيد منهم شيئاً . انظر إلى المتفرج في ملعب كرة القدم ، إذا كان وحيداً منفرداً لا يوجد متفرج غيره بجانبه ، لا يدخل إلى نفسه السرور بخلاف ما إذا كان الملعب حافلاً بالمتفرجين . والعزلة قاسية ، إذا طالت فإنها قد تؤدي إلى الجنون ، ولهذا كان أشد أنواع الحبس قسوة هو السجن الانفرادي . وقد يعترض بعض الناس بأن هناك

من يميل إلى العزلة كالنساك ، وهؤلاء قلة نادرة لا نأبه لها ، لأن أحكامنا نصدرها على أغلبية الناس . والحقيقة أن أسبابا قوية هي التي تدفع المعتزل إلى الهرب من الناس ، وفي عقول هؤلاء مرض في الغالب ، فهم شواذ .

ومثل الإنسان ، مثل كثير من الحيوانات الاجتماعية ، لا يختلف عنها في شيء من هذه الناحية ، أى حب الاجتماع .

السيطرة والانقياد :

هما فطرتان متصلتان بالغريزة السابقة . ذلك أن أفراد المجتمع لا يتشابهون تشابها مطلقا ، بحيث يكونون على نمط واحد ، بل يتدرجون في سلم القوة والضعف ، والسيطرة والانقياد ، والرياسة والخضوع ؛ وهذا هو الحال أيضا في المملكة الحيوانية ، فللنحل ملكة وجنود وعمال .

هذا النظام المتدرج في المجتمع هو سر صلاحه ، فلو أن الجميع كانوا بقوة واحدة لتعارضت هذه القوى ، ولكن البعض يميل إلى السيطرة ، والبعض الآخر إلى الخضوع . هبك تركت عدداً من الأطفال في مكان واحد ، فإنك تجد أحدهم يتزعم الباقين ويقودهم ، ويصدر إليهم أوامره ، ويملي عليهم إرادته . وللسيطرة مظاهر كثيرة ، فقد تكون بالقوة الجسمية ، أو بالقوة المعنوية والفكرية . وقد يكون الإنسان رئيساً في وقت ، وخاضعاً في وقت آخر ، كالمطالب يتزعم أقرانه بينما ينقاد لأمر المدرس .

والانقياد قد يكون عن حب أو خوف ، فالوالد كثيراً ما يدعن لرغبة ابنه الصغير ، وذلك عن حب . ويقول « هو بس » إن الدولة تقوم على الخوف ، وهذا صحيح إلى حد كبير ، فالإرهاب وسيلة من وسائل الحكم ولكن حكومات الإرهاب

لا تقف على أقدامها إلا إذا كان الشعب راضياً عنها ، إذ أن معنى انقياد الشعب لحكم ديكتاتور هو رضاه عنه .

والانقياد فطرة طبيعية أيضاً ، ويكفى أن تنظر إلى الكلب الذى يزجره صاحبه فيقعى ويجلس بجانبه ، فهو لا يجرى ولكنه ينقاد فى خضوع . وإذا نظرت إلى جماعة من الطيور الداجنة كاللدجاج ، فإنك تجد أنها ليست مجموعة من الأفراد كل فرد وحدة قائمة بذاتها ، يعيش منفصلاً عن غيره ، بل هى جماعة يسودها نظام وحكم ، فهى تتزاحم على الرياسة حتى إذا تغلبت إحداها بحكم قوتها تصبح زعيمة الجميع ، ثم ينقاد لها الباقون بالإجماع .

النزعات العامة

وقع فى اصطلاح فئة من العلماء أن يفصلوا بعض الميول الفطرية العامة عن الغرائز ، لأنها تفقد شرطاً من شروط الغريزة ، وهو أن الانفعال لا يصحبها . هذه النزعات العامة هى الإيحاء ، والمشاركة الوجدانية ، والتقليد^(١) . وهى كلها نزعات اجتماعية نتيجة وجود الإنسان فى المجتمع ، إذ لا بد من تفاعل يتم بين الناس حين يتصلون فى المجتمع ، وهذا التفاعل عبارة عن تأثير وتأثر .

هذا التأثير إما أن يكون إدراكياً ، أو وجدانياً ، أو نزوعياً ، تبعاً لتحليل الظواهر النفسية الذى سبق . فالتأثير الذى تغلب عليه الناحية الإدراكية يسمى الإيحاء ؛ وذلك الذى يتميز فيه الوجدان يطلق عليه المشاركة الوجدانية أو التعاطف ؛ أما التأثير الغالب فيه النزوع فهو التقليد .

Suggestion, Sympathie, Imitation. (١)

الإيحاء :

من طبيعة الإنسان أن يقبل أفكار غيره ، ويصدق بها ، وليس العكس . فإذا رويت قصة لأحد أصدقائك فإنه يصدقها ، ولا يشك فيها إلا إذا استبان مآخذ تؤخذ عليها . والإنسان قليلاً ما يُعَمِّلُ فكره في الآراء التي تقدم إليه ، أو يقابلها بعضها ببعض ، هل هي صادقة أم كاذبة ، صحيحة أم خاطئة ؟ وهو أكثر تأثراً بالآراء الشائعة ، والعرف السائد . فاستعداد المرء للتأثير والتأثر بالأفكار والمعتقدات هو ما يسمى بالإيحاء . وقد يكون الإيحاء مقصوداً ، وقد تتأثر به عفواً .

يتفاوت الناس في قبولهم للإيحاء حسب قوة إرادتهم وتفكيرهم ، وحسب شخصية صاحب الإيحاء . فإذا فطن الإنسان إلى التأثير الواقع عليه فإنه يعارض في ذلك ، ولكنه بالرغم من هذه المعارضة قد ينتهي به الأمر إلى قبول الفكرة .

ويكون الإيحاء قوياً إذا كان صادراً عن شخصية كبيرة بالنسبة إلى من يُوحى إليهم كالملك والرعية ، والزعيم والشعب ، والرئيس والمرؤوس ، والمدرس والطلاب . وترجع قوة الشخصية إلى الثروة أو الجاه ، أو القلب أو المركز أو العلم إلى غير ذلك من الصناعات التي تضاف إلى الناس . ويجب أن يتوفر في الموحى الإيمان والثقة ، ولذا قيل إن الإيمان بالنجاح نصف النجاح . ويجب أن يصحب الإيمان بالشيء الأمر به ، مصوغاً في صيغة الجزم . وللتكرار أثر كبير في قبول الإيحاء ، لأن تكرار الأشياء يسهلها حتى في الأمور العقلية ، ومن هنا كان الإعلان في حاجة إلى التكرار المستمر . وخضوع الإنسان للمعتقدات أثر من آثار الإيحاء .

والإيحاء العكسى هو الذى ينتج عكس المقصود . فقد يريد البائع أن يوحى إلى المشتري فكرة جودة البضائع ، فيغالى في مدحها ، فيزهد المشتري فيها .

المشاركة الوجدانية أو التعاطف :

هى انتقال الانفعالات والعواطف من شخص إلى آخر . وهى نزعة فطرية موجودة عند الطفل والحيوان الراقى . فالطفل يصيح إذا وجد غيره يصيح . والقردة تفرح وتتألم فرحاً وألماً مشتركين . وينتقل الانفعال من شخص إلى آخر كالعدوى . فإذا وجدت شخصاً خائفاً ، فإنك تخاف أيضاً دون سبب ؛ هذا التعاطف هو أساس العزاء عند الموت ، والتهنئة عند الفرح . والمشاركة الوجدانية إذا شاعت فى المجتمع أدت إلى وحدته . وارتباط الأمة هو نتيجة اشتراك أفرادها فى آمال أو آلام واحدة . والمشاركة الوجدانية أساس كثير من أفعال البر ، فقد ينكب بلد بالزلازل أو العواصف ، فيسرع الناس من جميع الجهات إلى مساعدة أهله ، كما لو أن الكارثة حلت بهم .

التقليد :

إذا اجتمع عدد من الطير فوق شجرة فيكنى أن يطير أحدها حتى يطير الجميع ، وإذا عوى كلب عوت باقى الكلاب ، وإذا جرى طفل جرت جميع الصبية دون أن يعلموا لماذا يركضون . ومن المناظر المألوفة أن تجد الطفل الصغير يتناول العصا ويمشى بها كما يفعل أبوه . فهناك نزعة عند الإنسان تدفعه إلى تقليد حركات الغير وإشاراته ولفظاته وأصواته وأعماله . ومن غرائب المحاكاة التى لم يعرف تعليلها على وجه التحقيق حتى الآن التأوب .

ووظيفة التقليد عظيمة الأهمية ، إذ بها تكتسب بداية الأعمال الجديدة . وإذا كان الإنسان سلسلة من العادات ، فبدأ العادة غالباً يكون منشؤه محاكاة الغير . فالطفل حينما يتعلم الكلام أو الكتابة يكتسبهما عن طريق المحاكاة .

ويعلل بعض العلماء ميل الإنسان إلى التقليد بأنه يسعى إلى الحصول على مدح الغير . ومن ذلك أن الطفل يقلد المحيطين به ليحصل على تقدير الناس له . وليس هذا التفسير صحيحاً على الإطلاق ، بل يرجع التقليد إلى طبيعة الانقياد ، إذ أن الإنسان يحاول دائماً تقليد من هو أعظم منه شخصية . وهناك تعليل آخر يقوم على قانون الاقتصاد في الجهد ، ومن مظهر هذا الاقتصاد عدم التفكير ، فيكتفى الإنسان بأن غيره قد سبقه إلى التفكير في الرأي ليأخذ هو خلاصته ، فإذا كان صاحب الرأي أو العمل ذا قيمة ، كان هذا أدعى لقبولهما ، وإذا اعتنقت الجماعة فكرة أو عملاً كان هذا سبباً لاعتناقهما .
